تاريخ

فلاحة البساتين بمصر

ابراهيم عثمان


obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

عنيت منذ اشتغالى بفلاحة البساتين بالبحث عن النباتات المصرية — الأصلية والمستوردة — والعصور التى وجدت فيها . وقد عثرت أثناء بحثى على معلومات شتى عن البساتين المصرية فى العصور المختلفة . وقمت بنشر شيء من ذلك فى "المجلة الزراعية المصرية" ومجلتى "الفلاحة" و"فلاحة البساتين المصرية" . ورأيت أن أجمع شتات هذه الموضوعات فى رسالة يرجع اليها من يريد أن يعرف شيئا عن بساتين مصر فى العصور المختلفة . ولعلى أكون قد قمت ببعض الواجب نحو المشتغلين بهذا الموضوع ، أسأل الله الرضى والتوفيق .

ابراهيم عثمان


obeikandl.com

تاريخ فلاحة البساتين بمصر

تمهيـــــد :

كان خليقا بالبلاد المصرية وقد امتازت بحسن الموقع وصفاء الجـو وخصب التربة أن تكون فى مصاف البـلاد الغنية بثروة نباتية (Flora) كبيرة، ولـكن الواقع غير ذلك فهى فقيرة بالقياس الى البلاد الأخرى لأنها بلد قليلة الأمطار ليس فيها من الأنهار إلا النيل يجرى بين صحراوين .

ولقد كانت هناك نباتات نامية بمصر فى العصر السابق ثم تلاشت لعدم تعهدها منها صنف من الدوم (Hyphaene Argun) وصـفه قدماء المصريين وصفا شعريا، ونبات البردى (Cyperus Papyrus) الذى كان منتشرا بالوجه البحرى ، ثم اندثر فـلا يوجد الآن إلا بالمتنزهات ، هذا الى شجرة اللبخ (Mimusops Schimperi) التى قدّسها قدماء المصريين وأشاد بذكرها مؤرّخو العرب، ثم أصبحت أثرا بعد عين .

العصـــر الجيولوجى :

قد يبدو غريبا اذا عرفنا أن الديار المصرية كانت قبل بفجر التاريخ كثيرة الغابات تشبه وادى النيل فى قلب أفريقيا اليوم .

ولكن هناك آثارا تؤيد ذلك كالغابات المتحجرة القريبة من الأهرام وجبل المقطم، وكانت الأولى تمتد الى مدى شاسع. وقد ذكر الجيولوجى الألمانى أنجر (Unger) أن نباتات هذه الغابات أغلبها يتبع الجنس نيكوليا (Nicolia) من الفصيلة الاستركولية (Sterculiaceae)، والقليل منها يتبع النوع المخروطى. أما ما وجد بالغابات المتحجرة القريبة من جبل المقطم فمن أنواع مختلفة هى :

Araucarioxylon Aegyptiacum ; Kraus in Unger.
Palmyloxylon Aschersoni ; Shenk.
Nicolia Aegyptiaca ; Unger.
Laurinoxylon primigenium.
Ficoxylon cretaceum.
Dombeyoxylon Aegyptiacum.
Capparidoxylon Geinitzi.
Acacioxylon Antiquum ; Shenk.

وذهب العالم الفرنسى الجيولوجى الدكتور جاياردو (Gaillardot) الى أن هذه النباتات المتحجرة نتيجة لعدة ظواهر طبيعية بدأت فى أخريات العصر الثالث الجيولوجى، ومن رأيه أن أوّل هذه الظواهر الطبيعية وجود طبقات عظيمة من الماء الساخن السليسى تحت سطح الأرض انفجرت من عدة ينابيع إثر ثورات بركانية ثم انسابت كالسيل نحو جهات كثيرة فى مصر وصحراء ليبيا ورسبت موادها السليسية فى خلايا الأشجار التى كانت تغشى هذه المناطق.

عصر قدماء المصريين :

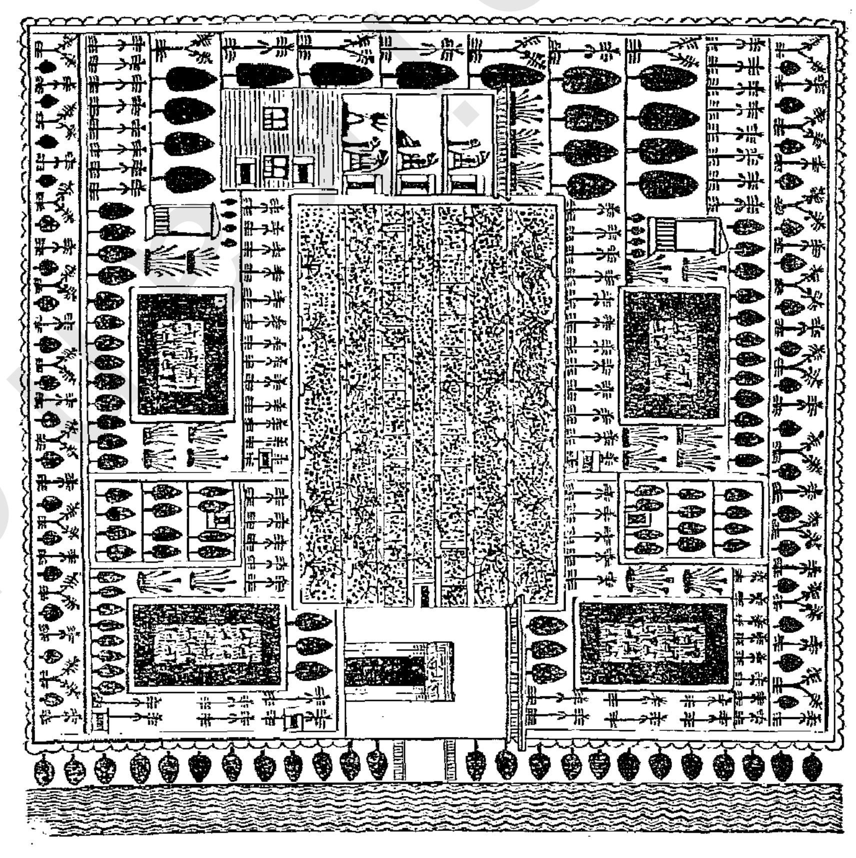
وبرسوب طمى النيل على توالى الأيام بعضه على بعض تكونت الأراضى القابلة للزراعة، ولما أن كانت الزراعة هى الوسيلة الطبيعية لكسب العيش من قديم الزمان فقد ضرب المصريون فيها بسهم وكانت من أمهات المسائل التى وجهوا نظرهم اليها وبذلوا فيها أقصى الجهود وإنك لا تزور قبرا من قبور قدمائهم أو معبدا إلا وترى أمامك المناظر الزراعية، وقد تمثل فيها المحراث والدلو والدالية (الشادوف) .

ولم تكن الساقية ولا الطنبور (بريمة أرخميدس) معروفين لقدماء المصريين لأنهما أدخلا فى العصور المتأخرة ، وقد يلتمس العذر لهم فى ذلك مع اكتفائهم بالآلات الأولية غير باحثين عن الاقتصادى منها ومع بلوغهم درجة عظيمة من المدنية والحضارة لأن مثل هذا النقص لم تسلم منه أمم عظيمة أخرى مثل اليونان والرومان .

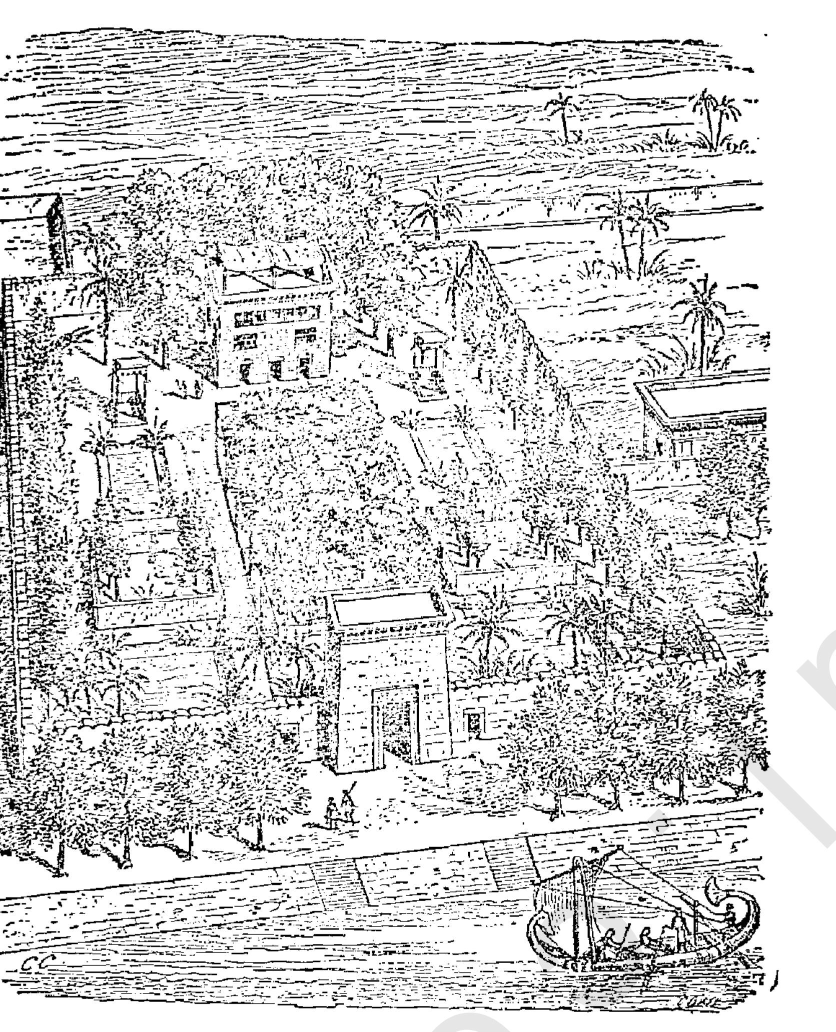
ولما انتشرت الرفاهية واستبحر العمران زرعت الأشجار وغرست الحدائق، وقد كان لقدماء المصريين حدائق غناء ورياض فيحاء زينت بمختلف الفواكه وشتى الأغراس ، وكانت حسنة الوضع بديعة التنسيق .

ولم تكن حدائق قدماء المصريين صغيرة بأى حال ، ولكنها كانت تظهر كذلك إذا قورنت بما كان حولها من آيات الضخامة ، لأن قدماء المصريين لم يبرزوا فى شىء أكثر من قدرتهم على بث الروع فى النفوس بما كانوا يقيمون من شاهق الأبنية وجلائل الآثار، ولم يكن نابليون ورجاله وقد امتطوا جيادهم ليقفوا أمام أبى الهول الرابض الركين من غير أن يستوقف أنظارهم وهو قائم بين رمال الصحراء المنداحة التى تحدث بسكونها العميق، ولقد نظر نابليون إذ نظر فوجد من الروعة والجلال ما أخمد من سورة طموحه وجعل مظاهر فخره ومجده ضربا من ضروب التمثيل .

ولقد كانت حدائق قدماء المصريين متسقة مع المعابد والقصور فى نظام من الجلال ، وكان يغشى تلك الحدائق سكينة تسرى فى مناحيها ، وكان لها من وارف الظل ، وبليل النسيم ، ما جعلها كالواحة الخصبة فى الصحراء المجدبة ، وكان ينثال فى منعطفاتها ماء الفوارات خافت الترنيم ، وكان نسيمها البليل يحمل ما علق بأذياله من أريج الأزهار ، وكان يزيد فى إبداعها وجودها على شاطئ النيل المحبوب بين مظاهر المجد وآيات الفخار، وزاد فى روائها تلك الجدران القائمة والأبواب ذات العمد وتلك القنوات المتسربة التى تأخذ الأبصار بحسن رونقها ولطيف تسلسلها، هذا الى تلك



رسم حديقة كبيرة من حدائق قدماء المصريين
(عن روز يليني Rosellini)



رسم منزل وحديقة لأحد نبلاء قدماء المصريين
(عن پيروت وشپيز Perrot & Chipiez)

الطرق التى سمق على جوانبها النخيل المنسرح وما شابهه من سائر الأشجار — وأكثر هذه من أشجار السرو ، كما تدل نقوشها على الآثار — تلك الطرق التى تحس بسحرها فى حدائق إيطاليا الغناء وهى ليست إلا صورة من حدائق مصر فى ذلك العهد .

يقابلك فى مدخل تلك الحدائق نزل الأضياف الفسيح ذو السقف المنبسط ، تحيط به وتعزله جدران ذات شرفات ، وتمسح كف القنوات درجاته التى تشرف على أعمدة مرصوصة كساها الظل ، وتطل على خضرة بارضة ، وأشجار ذات أثمار ، وكروم تسلقت فروعها على الظلل المتوشحة ، وطرحت عليها العناقيد الشهية وإنك اذا أطللت على بركها التى وشعتها أزاهير الماء انبث فيك حب الراحة والاستسلام الى لذيذ الأحلام التى يشعر بها من يزور آثار عرب الأندلس الأقدمين أو كنائس أسبانيا ، وكان بهذه الحدائق أنواع شتى من النباتات كل منها يسترعى البصر ويستوقف الفكر ، ويأخذ قلب من تفعل فى إحساسه هذه المؤثرات ، ويسحر لب من رزقه الله قوة الفحص والدرس وموهبة الارتياح النفسى الى مشاهد الجمال . فان هذا الجمال ليشع من كل نبتة أو زهرة الى لباب القلب ، ويهيجه فى كل نفس مايعبق فى الجو من نشر الأزهار أكثر مما تهيجه الألوان الآلاقة والأشكال

البديعة ، وقد فطن قدماء المصريين الى هذا فكان للأزهار في نفوسهم رعى وحرمة ، وقد اعتدوا بعض الأشجار والنباتات مقدسة لا يحق زرعها بغير أمر القسس .

ولنرجع بخيالنا الآن الى جنة من تلك الجنان وقد قامت فيها المعابد والقصور فنرى النيل ينساب فى سكون وقد مخرت فيه الزوارق تزجيها العبيد ، وأطلت من فوق سور الحديقة ذؤابة شراع من أشرعتها وقد عكس أشعة الشمس ، ثم لننظر الى داخل هذه الحديقة فنرى البرك والغدران وقد وشعتها أنواع الغاب ، واللوتس يلعب بها النسيم ، ويصفر فى عيدانها وأوراقها . ونرى النخيل الباسق على حافاتها ، وقد استطال ساقه فحكى أعمدة ضخمة تحمل تيجانا من صور الأوراق والثمار . ونرى أشجار السرو الساهمة التى تبعث الحزن وتخفف من حدة الألوان الزاهية فى الفواكه والأزهار وعريش الكروم . ونرى الكهوف الظليلة وقد برقت فيها القطع المشمسة ، كل هذا فى نظام بديع وشكل متناسق يزيد فى جماله الماء الرقراق . ونرى تماثيل الآلهة وقد انتشرت فى الحديقة فزادت من سكونها جلالا ، وبثت فيه روحا قدسية لا يعتورها الفناء ، ولم يكن ليثير من ذلك السكون إلا مَرُّ العبيد خفافا فى وشيهم الشرقى البسيط ينتقلون من مكان الى آخر ، إن هذا

لهو مبعث السحر وموطن الاعجاب، تحتويك فيه دنيا الخيال والأشباح فكأنك مذهوب بك ، وإنما تفوق قدماء المصريين فى هذا الفن من وضع الرسوم ، وعرفوا كيف يخلبون به الألباب ونبغ فيهم كثيرون ممن رسموا الحدائق ووضعوا أشكالها فقد دلت الآثار على وجود رجل اسمه (نكبت) عاش حوالى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد فى عهد الملك تحوتمس الثالث ووضع رسوم حدائق معبد الكرنك .

وقد زرع قدماء المصريين الكثير من الفواكه والخضر وأغلب أنواعها باق الى الآن ، وكان من أحب الفاكهة لديهم الأعناب فقد اعتنوا بزراعتها وأقاموا لها الظلل الخشبية الملوّنة وكانوا يخصصون لها محلا بالحديقة ، وكانوا يتقون شر الطيور التى تأكل محصولها بصبية تطاردها كما نفعل الآن ، ويتخذون من عصير أثمارها الخمر ، وكانوا يزرعون النخيل بكثرة ولهم فيه منافع كثيرة يقصر اللسان عن وصفها ، وإن نظرة واحدة لما تحويه دار الآثار المصرية من المصنوعات المتخذة من أجزاء النخلة تكفيك مؤونة البحث ، وزرعوا الرمان والفتنة والمشمش والتين والسدر والدوم . أما الزيتون فكانت زراعته معروفة لديهم من أقدم العصور ، فقد ذكر فى نقوش هرم الملك (تيتى) من العائلة السادسة ، وعملت من فريعاته

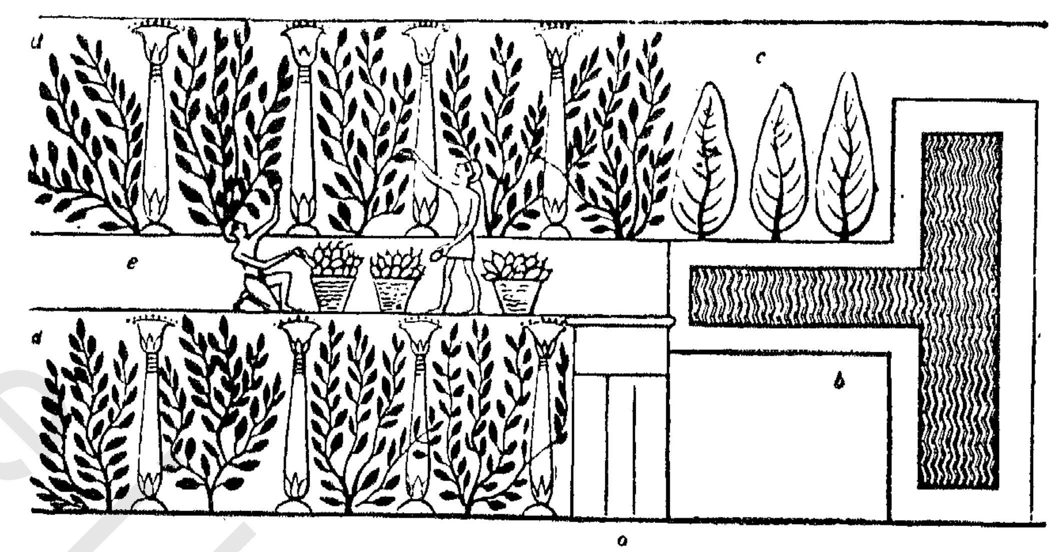
أكاليل وضعت على رؤس الموميات وكانوا يستخرجون منه زيتا يضيئون به المعابد وينتفعون به .

وقد أولع قدماء المصريين بغرس النباتات واستيراد الكثير منها . فقد عنيت الملكة حتشبسوت (من الأسرة الثانية عشرة) باستحضار نباتات اللبان من بلاد البونت (على سواحل الصومال) الى معبد الدير البحرى غربى الأقصر لزراعتها هناك فى حفر منقورة فى الحجر لهذا الغرض .

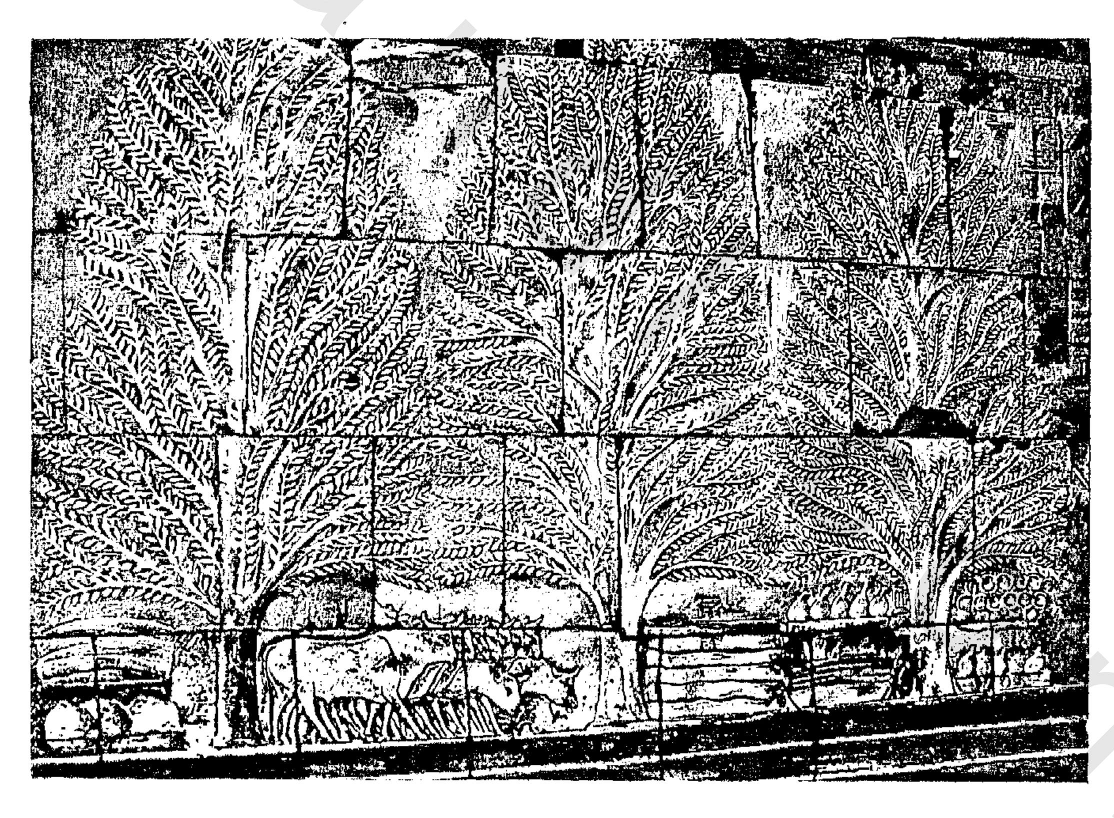
وقاسى قدماء المصريين كثيرا من الشدائد لعدم وجود أخشاب جيدة . وقد بحثوا عنها فى الممالك الأجنبية وكانت غالية الثمن .

وكانت الأخشاب المحلية تلوّن بألوان الأخشاب الأجنبية المرتفعة الثمن، وكان خشب الهجليج (Balanites aegyptiaca) وسنّ الفيل وريش النعام من أهم ما قدّمته قبائل أثيوبيا والسودان الخاضعة لمصر من الجزية السنوية، وكان خشب الشربين والأرز يستجلب من الأقطار السورية . أما الأخشاب النادرة الجيدة الأخرى فكان يستجلبها الأسيويون المحالفون للفراعنة .

وكانت شجرة الجميز من الأشجار المقدّسة عندهم لأنها تظلل المعابد والهياكل وكانوا يتخذون من خشبها توابيت الأموات



جمع محصول العنب أيام قدماء المصريين



نباتات اللبان منقوشة على معبد الدير البحرى

والأبواب والنوافذ والمقاعد ومقابض السكاكين ، وكان يفضلها السنط من حيث خشبه • أما قرظه فكانوا يستعلمونه فى الدباغة كما هو الحال الان ، وكانوا يتخذون من خشب الصفصاف والأثل بعض الالات والأثاث •

وكان اليسار (Moringa aptera) من أنفع الأشجار عندهم وأحسنها حتى إنهم زعموا أن غذاء معبوداتهم كان منه، وكان يستخرج منه زيت شهير عنـدهم باسم باخو (Bakhu) يستعملونه فى التعطير ودهن الجثث المحنطة وفى الطب، وشجر اليسار معروف للآن .

وقـد اعتنى قدماء المصريين اعتناء عظيما بالنباتات الطبية وأفسحوا لها المكان الأسمى، كما أشار الى ذلك هومر (Homer) •

وكان للبردى عندهم منزلة كبيرة ، وكانوا يصنعون منه القراطيس والقوارب والحصر والأحذية الخفيفة (الخف) ، أما الهداب الذى يعلو النبات فقـد كان مستعملا فى صناعة الأكاليل الزهرية التى توضع على مزارات الآلهة، واذا صح أن لفظة "جومه" العبرية تفسر بنبات البردى لأمكن القول أن مهد سيدنا موسى عليه السلام صنع من هذا النبات .

وقـد رسمت قراطيس البردى على جدران المعابد والهياكل المصرية ووجد الكثير منها بين الأطلال والمدافن ، وكانت هذه

القراطيس مستعملة لمقاصد شتى إما دينية و إما دنيوية ، واستمرت زراعة البردى فى مصر مدّة حكم العرب الى أن عرف الورق .

وكان يشتغل فى صناعة قراطيس البردى فريق عظيم من العمال وله معامل كثيرة بمدينتى طيبة ومنفيس وغيرهما من المدن ، وكيفية عمل القرطاس منه هو أنهم كانوا يقطعون طرفى الساق لعدم صلاحيتهما ويشقونه نصفين طولا ثم يفصلون أغلفته بمنخس ، ثم يجففونه فى الشمس بنشره عودا عودا ، ثم يعطنونه ويدقونه ويجففونه ثانيا ، ثم يضعون العيدان بعضها بجوار بعض ويدهنونها بالغراء ، ثم يضعون فوقها طبقة أخرى متصالبة معها ويدقونها بلطف ، ثم تدهن بالزيت لتكتسب المرونة ثم تصقل فتصير ناعمة الملمس حسنة المنظر .

ولا يقل البشنين عن سابقه منزلة عندهم ، وكان له ثلاثة أصناف : الأبيض، وهو البشنين الخنزيرى . والأزرق، وهو البشنين الأعرابى . والثالث ويقال له النيلوفر الوردى ، ولشغفهم العظيم بالأزهار كانوا يرسمون زهرة البشنين على حيطان منازلهم ومقاعدهم وملابسهم ، وقد تخطوا ذلك الى استعمال الزهور الصناعية ، وكانوا يهدون الزهور الى موتاهم عند زيارتهم للقبور كما نفعل الآن فى المواسم والأعياد ، وكان للبساتين إله فى معتقداتهم يعرف

بخم (Khem) . وكان لها عيد يحتفلون به كل عام اذا اخضرت الأوراق وتفتحت الأزهار .

وباستيلاء الفرس على البلاد حل بها الخراب والدمار ومرت عليها فترة من الزمن ذاقت فيها الأمرّين .

العصــر البطليموسى :

ثم غزا مصر الاسكندر المقدونى، وبعد موته آلت الى البطالسة وهم قوم من الاغريق أحسنوا سياسة الملك ، فنمت الثروة فى أيامهم بما قاموا به من جلائل الأعمال ، من تعضيد الزراعة والصناعة والعلوم حتى صارت الاسكندرية فى عهدهم كعبة الزوّار من العلماء والفلاسفة ، وكان لملوكهم قصور فخمة تحفها البساتين الغناء ، وقــد استوردوا الكثير من النباتات فى أيامهم ، ولعل التفاح الصغير الحجم الحلو المذاق الذى رآه عبد اللطيف البغدادى حين زار مصر أيام صلاح الدين الأيوبى فى بستان القطعة بالاسكندرية كان باقيا من عهدهم .

العصــر الرومانى :

وبعد أن دالت أيام البطالسة تسلط الرومان على البلاد، وكانت مصر فى أوائل عهدهم زاهية زاهرة بها رياض وحدائق ، وكان

ساحل البحر الأبيض المتوسط بجوار الاسكندرية شرقا وغربا آهلا بالسكان مغروسا بالكروم ، وحديثا اكتشفت آبار رومانية كثيرة فى تلك المناطق محكمة البناء . وقد بقيت هذه الجهات عامرة الى قبيل حكم العرب ، وذكر بعض المؤرخين أنه كانت لامرأة المقوقس بساتين وكروم كثيرة ، وكانت تأخذ بخراجها من الفلاحين خمرا حتى ضاقت ذرعا فقالت لفلاحيها لا حاجة لى بالخمر فاعطونى مالا ، قالوا لها ليس عندنا مال إلا الخمر ، فأغضبوها فأرسلت الى عامل تلك الجهة أن يطلق عليهم البحر المالح فأطلقه عليهم من ناحية أبى قير فغرقت تلك الأراضى كلها وطغى عليها الماء فصارت بحيرة ، وكم نالت البلاد المصرية فى آخر عهد الرومان من الظلم والتعسف فكان عهد دقلديانوس عصر تدهور واضطراب .

العصر العربى :

ولما دخلت مصر فى حوزة العرب اعتبرت جزءا من أملاك الخلافة يحكمها والٍ يرسل من قبل الخليفة ، ولم يحصل تغيير يذكر فى عهدهم ودام الحال على ذلك نحو قرنين ونصف قرن تعاقب عليها أكثر من مائة عامل لم يصب البلاد على يدهم رقى يذكر ، ولضعف الولاة أضيفت أعمال الرى والزراعة الى أصحاب

الالتزام فأهملوا الأرض وقل العمران تدريجا ويقال أن عبد اللاوى (العجّور) نسب الى عبد الله بن طاهر والى مصر عن المأمون .

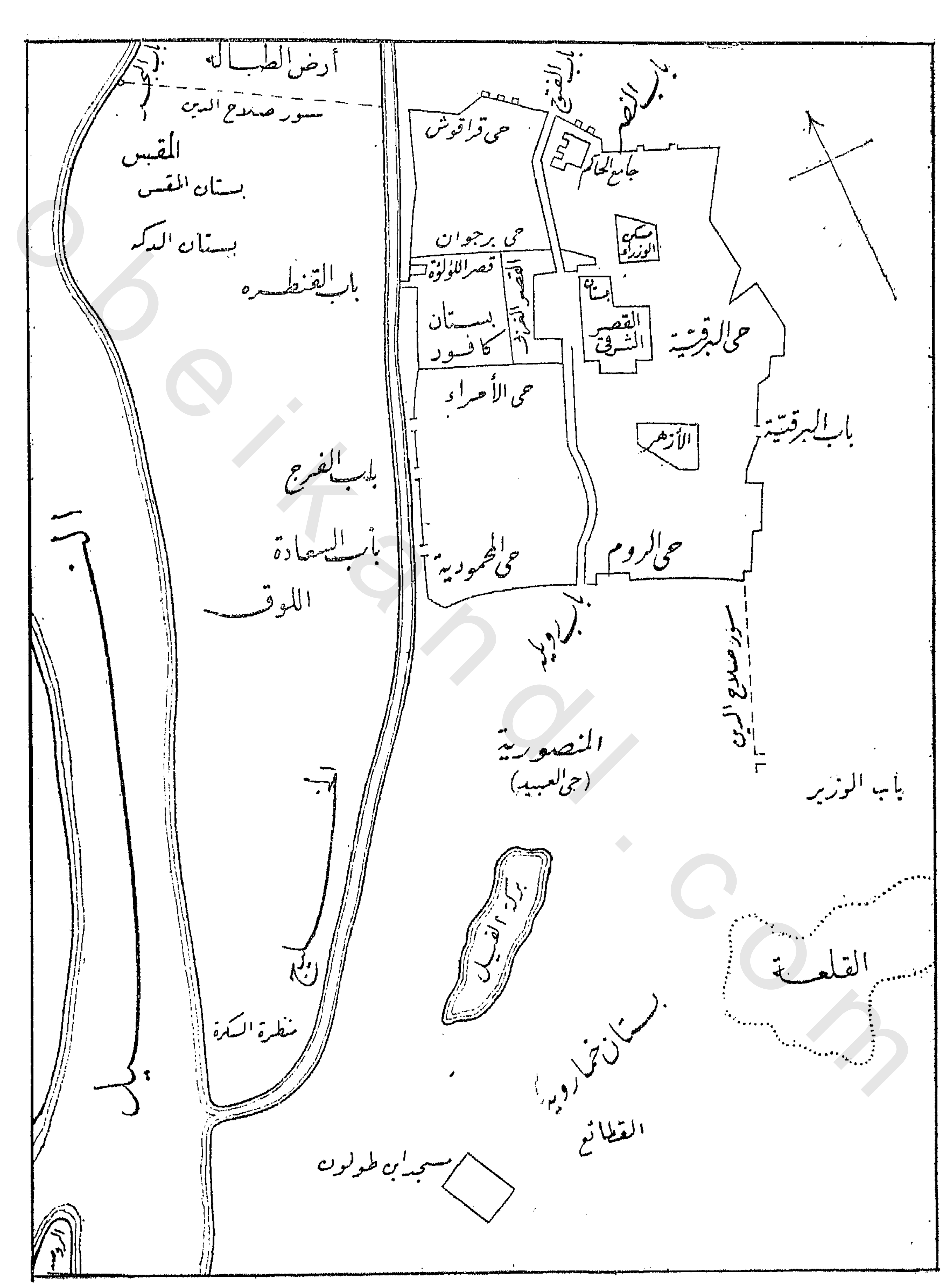
العصـــر الطولونى :

وآل ملك مصر الى أحمـد بن طولون سـنة ٨٦٨ ميلادية فدخلت مصر فى عهد مغاير لسابقه وانبسط الرغد ، وقد اتخـذ ابن طولون لنفسه عاصمة جديدة تتفق مع عظمة الملك وكثرة الأتباع والجند، ووجد ضاحية العسكر صغيرة فاختار لعاصمته مكانا بين الفسطاط وجبل المقطم عرفت بالقطائع ، وبنى فيهـا قصره وجعل له حديقة كبيرة وجعل له ميدانا فسيحا يضرب فيه بالصوالجة . وابن طولون فى طليعة حكام مصر الذين قاموا بقسـط وافر من تجميل عاصمة ملكهم، وقد سار ابنه خمارويه سيرة أبيه فى الميل الى تشييد العمارات والقصور الفخمة وبالغ فى الترف ، فقد وسع القصر وجعل ميدان أبيه بستانا زرع فيه أنواع الشجر والرياحين، وحمل اليه كل صنف من الشـجر المطعم العجيب وأنواع الورد وزرع فيـه الزعفران ، وكسا قامات النخيل نحاسا مذهبـا حسن الصنعة، وجعل بين النحاس وأجساد النخيل ميازيب الرصاص، وأجرى فيها المـاء المدبّر فكان يخرج من تضاعيف قوائم النخل عيون المـاء فتنحدر الى فساق معمولة، ويفيض منها المـاء الى مجار

تسقى سائر البستان، وغرس فيه الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة، يتعهدها البستانى بالمقراض حتى لا تزيد ورقة عن ورقة، وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر، وأهدى اليه من خراسان وغيرها نباتات كثيرة، وطعموا له شجر المشمش باللوز وأشباه ذلك . وبنى فيه برجا من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقفاص، وزينه بالأصباغ وبلط أرضه وجعل فى تضاعيفه جداول يجرى فيها الماء مدبرا من السواقى التى تدور على الآبار العذبة وتسقى منها الأشجار، وسرح فى هذا البرج من أصناف القمارى والدباسى والنونيات وكل طائر جميل حسن الصوت، فكانت الطير تشرب وتغتسل من تلك الأنهار الجارية فى البرج، وجعل فيه أوكارا فى قواديس لطيفة ممكنة فى جرف الحيطان لتفرخ فيها الطيور وسرح فى البستان من الطير العجيب شيئا كثيرا .

العصر الأخشيدى :

وبعد الدولة الطولونية استولت الدولة العباسية ثانيا على البلاد، ثم استقل بها الأخشيد (سنة ٩٣٥ ميلادية)، وأنشأ لنفسه بستانا بجزيرة الروضة سماه المختار أنفق على تشييده خمسة آلاف دينار، وكان يتنزه فيه ويفاخر به أهل العراق، واستمر هذا البستان



رسم تخطيطى للقاهرة قبل سنة ١٢٠٠ ميلادية عن رافيز (Ravaisse) بتصرف

محلا للنزهة الى أن زالت دولة بنى الأخشيد ، وأنشأ بستانا آخر (عرف فيما بعد بالبستان الكافورى) جعل له أبوابا من حديد، وكان يتردّد اليه ويقيم به الأيام ، ولما استبد أبو المسك كافور الأخشيدى بإمارة مصر كان كثيرا ما يتنزه فيه ، فلما قدم القائد جوهر من المغرب بجيوش مولاه المعز لدين الله الفاطمى لأخذ ديار مصر، أناخ بجوار هذا البستان ثم ضمه الى القاهرة وبقى متنزها للخلفاء الفاطميين ، وكانوا يتوصلون اليه من سراديب مبنية تحت الأرض ينزلون اليها من القصر الكبير الشرقى، ويسيرون فيها بالدواب بحيث لا تراهم الأعين ، وما زال البستان عامرا الى نهاية الدولة الفاطمية ، وكان هذا البستان كبيرا بلغت مساحته ستة وثلاثين فدانا بمقياسنا اليوم ، وفى محله حارات اليهود وخط الخرنفش .

العصر الفاطمى :

وفى سنة ٩٦٩ ميلادية آل ملك مصر الى الفاطميين وباستيلائهم عليها دخلت البلاد فى عصر زاهر فكثر العمران وزادت الرفاهية . وقد ذكر الرحالة الفارسى ناصرى خسرو فى كتابه سفرنامه (وهو سائح جاء الى مصر حوالى سنة ١٠٤٧ ميلادية) أن مصر كانت ممتدة على شاطئ النيل ، ومنازلها محاطة بالحدائق وبعضها كان مركبا من سبع طبقات ، ولقد رأى حديقة منشأة فوق سطح

أحد هذه المنازل تروى بساقية يديرها ثور . وذكر أن هذا الثور أُطلع الى السطح المذكور وهو صغير ، ولما استقر ملك الفاطميين أنشأوا من المبانى الفاخرة "والمناظر" البهيجة والبساتين النضرة ما زاد فى بهجتها ورونقها ، وكانت "المناظر" جميلة الموقع فى بستان أنيق يركب اليها الخلفاء للتنزه والرياضة، وكان للخلفاء الفاطميين "مناظر" كثيرة بالقاهرة ومصر والروضة والقرافة وبركة الحبش وظواهر القاهرة . فمن مناظرهم منظرة الجامع الأزهر، واللؤلؤة ، والسكرة ، والدكة ، والمقس ، وباب الفتوح ، والبعل ، والتاج ، والخمسة الوجوه ، والصناعة، ودار الملك، ومنازل العز، والهودج بالروضة، والأندلس بالقرافة، والبساتين الجيوشية .

وكان من متنزهاتهم أيضا كسر خليج أبى المنجا وقصر الورد بالخاقانية وهى قرية من قرى قليوب بها جنان كثيرة للخليفة وبها عدّة دويرات يزرع فيها الورد ويذهب اليها الخليفة فيصنع له فيها قصر عظيم من الورد .

وقام الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى ووزير الخليفة المستنصر والمستعلى بانشاء بستان البعل (بين الترعة الاسماعيلية والخليج الآن)، وأنشأ أيضا البساتين الجيوشية، ويبتدئ أحدهما من زقاق الكحل (الدشطوطى الآن) خارج باب الفتوح الى

المطرية، والآخر يمتد من خارج باب القنطرة (باب الشعرية الآن) الى الخندق (الدمرداش الآن)، وبلغ من شدّة غرام الأفضل بالبستان الذى يجاور بستان البعل أن عمل له سورا مثل سور القاهرة، وخط فيه بركة كبيرة . وبنى فى وسطها منظرة محمولة على أربعة أعمدة من الرخام، وحفها بشجر النارنج فكان نارنجها لا يقطع حتى يتساقط، وسلط على هذه البركة أربع سواقى وجعل له معبرا من نحاس وجلب اليه طيورا كثيرة .

قال ابن عبد الظاهر : ”واتفقت جماعة على أن الذى يشتمل عليه مبيعهما فى السنة من زهر وثمر نيف وثلاثون ألف دينار وأنها لا تقوم بمؤنتهما على حكم اليقين لا الشك، وكان الحاصل بالبستان الكبير والمحصن الى سنة أربع وعشرين وخمسمائة (هجرية)، ٨١١ رأسا من البقر، ومن الجمال مائة وثلاثة رءوس، ومن العمال وغيرهم ألف رجل . وذكر أن الذى زرع فى سور البستانين من سنط وجميز وأثل من أوّل حدّهما الشرقى مع حدّهما البحرى والغربى جميعا الى آخر زقاق الكحل فى هذه المسافة الطويلة عشر ألف ألف ومئتا شجرة (كذا) . وبقى قبليهما جميعا لم يحصن وأن السنط تغصن حتى لحق بالجميز فى الضخامة وأن معظم قرظه يسقط فى الطريق فيأخذه الناس وبعد ذلك يباع بأربعمائة دينار، وكان فيهما ليمون تفاحى يؤكل بقشره بغير سكر“ .

ويظهر من هذا أن البساتين التى كانت موجودة أمام بوابة الحسينية وتمتد الى الدمرداش والمطرية، وكذا الأرض التى كانت منزرعة فيما بين هذه البساتين والخليج هى من حقوق هذين البستانين .

وأنشأ الأفضل بستانا شمال جزيرة الروضة سماه "الروضة" (١٠٨٦ م)، وكان يتردّد اليه كثيرا، ومن ذلك الحين صارت الجزيرة كلها تعرف بالروضة ، فلما قتل الأفضل واستبد الخليفة الآمر بأحكام الله بالملك أنشأ بجوار البستان المختار بستانا لمحبوبته الغالية البدوية سماه "الهودج" وكان على شاطئ النيل ويقال ان المناظر الطبيعية التى كانت بهذا البستان من أبدع ما رأت عين .

العصر الأيوبى :

ثم آل ملك مصر الى صلاح الدين الأيوبى (١١٧١ م) وفى أيامه قامت الحروب الصليبية ، وكان للقاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى فى أيامه بستان عظيم (جهة المنيرة الآن) يمير اهل القاهرة من ثماره وأعنابه . وقد ذكر المقريزى ذلك فقال : "وما برح باعة العنب بالقاهرة ومصر تنادى على العنب بعد خراب بستان الفاضل هذا عدّة سنين بقولها (رحم الله الفاضل ياعنب)" . وقد اتجهت الأنظار أيام الدولة الأيوبية الى

زرع الحراج (الغابات) لبناء سفن الأساطيل الخ . وقد ذكر ابن مماتى فى كتابه "قوانين الدواوين" الحراج فى الوجه القبلى من الديار المصرية بالبهنسة فى سفط راشين (مديرية بنى سويف الآن) ومنبال وأسطال (مديرية المنيا الآن) وبالأشمونين والأسيوطية والاخميمية والقوصية ، ولم تزل الأوامر السلطانية خارجة بحراستها وحمايتها والمنع منها والدفع عنها وأن توفر على عمائر الأساطيل المظفرة ولا يقطع منها إلا ما تدعو اليه الحاجة وتوجبه الضرورة ولهذه الحراج رسم يستخرج من النواحى يقال له مقرّ السنط لأنه شىء قرّر على النواحى قابلة ما يأخذونه من الأخشاب برسم عمائرهم أو أجرة من يباشر قطعها على سبيل النيابة عنهم ، والمشروط على المستخدمين فيما يؤخذ من خطوطهم أنهم لا يقطعون شيئا من خشب العمل الصالح لعمائر الأسطول وانما يقطعون الأطراف والهشيم وما ينتفع به فى الوقود ويسمى حطب النار، وعادة الديوان أن يبايعوا التجار على هذا الحطب بما مبلغه عن كل مائة حملة أربعة دنانير من الأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص، ويكتب المستخدمون رسالة بذلك فاذا وصلت مراكبهم الى مصر القديمة فحص ما فيها، فما كان من خشب العمل استهلك للديوان، وما كان من حطب النار قوبل بما فى الرسالة المسيرة

صحبتهم، فان كان فيها زيادة عما نظمته أخذت، واذا كان فيها نقص استخرج منه ثمن الناقص، فأما حراج البهنسة فلم تجر العادة أن يباع منها شيء إلا ما فضل عما تحتاج اليه المطابخ السلطانية، ولو أطلق ببيع شيء منها يبذل فى المائة حمله ثمانية دنانير (يساوى دينار صلاح الدين ٥٨،٧٥ قرشا) الى عشرة، وذلك لأمرين: الأوّل لقرب متناوله وقلة كلفه، والثانى لجودة صنفه وغلاء سعره .

وقال أبو الفضل جعفر المؤرّخ الادفاوى الشهير أن مساحة الحراج الممتدة من جرجا الى أسوان على جانبى النيل عشرون ألف فدانا .

وقد أفرد ابن ممّاتى بابا فى كتابه هذا عن أصناف مزروعات مصر ذكر فيه أن الخراج عن أشجار الفاكهة يكون بعد اكتمالها أربع سنوات، ثم ذكر أوقات إدراك كل فاكهة، وما تحتاج اليه الأشجار من عمالين وسواقين وخولة وأبقار وعلوفات وسواقى ومياه الخ، ثم ذكر مواعيد تقايم الأشجار فقال عن العنب أنه يقلّم من أمشير الى أوائل برمهات، ثم ذكر أن أوّل رى الأشجار هو شهر طوبة ويسمى (ماء الحياة)، ثم عدد مرات الرى فى كل شهر، ثم ذكر مواعيد عزيق الأشجار، ثم تكاليف الحراثة،

ومقدار ما تسقيه الهمالية (الساقيــة) من الأفدنة فى حالة قرب الماء وبعده، وما تحتاج اليه من وقافين (الذين يحوّلون الماء) ومقـدار ما يحرثه زوج الأبقار من الأرض فى اليـوم (فى حالة ليونة ويبوسة الأرض) ومقدار استئجار الأبقار الخ .

وقد زار مصر أيام صلاح الدين العالم عبد اللطيف البغدادى وكتب عن النباتات فى مصر، وقـد وصـف شجـرة اللبخ (Mimusops Schimperi) ، وقال إنهـا كالسدرة وذكر أن خشبها صلب وجيد للغاية ، ويظهر أن هذه الشجرة قـد قلّ وجودها فى القرن الرابع والخامس الميلادى وربما اندثرت تماما من الديار المصرية فى القرن الخـامس عشر، ويوجد بدار الآثار المصرية مجاميع من هذا النبات محفوظة جيدا .

وذكر عبد اللطيف معلومات قيمة عن السنط والنخيل والجميز والقلقاس وذكر أنه كان يتخذ من ثمار الجميز خل حاذق ، وذكر أن البلح فى مصر قليل الحلاوة بالنسـبة لبلح العراق ، وذكر أن الموز يرتفع الى قامتين . ويستنتج من ذلك أن الموز القصير المنزرع الآن بكثرة كان غير معروف بمصر، وذكر أن الفواكه الحمضـية كثيرة ببلاد مصر منها الأترج الكبير وربما يكون المقصود بذلك الأترج الذى يزرع فى جزائر البحر الأبيض المتوسط . أما الليمون

المركب الذى ذكره فربما يكون الأترج البلدى المعروف اليوم وهو نبات يستعمل أحيانا أصلا لتطعيم المواالح عليه . أما ما ذكره عن الأترج الحلو فهذا أمر يستحق البحث ، ولم يذكر عبد اللطيف شيئا عن وصفه حتى يساعد ذلك على معرفته . أما ما ذكره عن الليمون الأحمر الشديد الاستدارة فربما يكون النارنج أو نوعه الآخر النارنج الحلو المعروف الآن وكان لدخول زراعة البرتقال فى مصر عن طريق البرتغال سببا لاضمحلال زراعة النارنج الحلو وزواله فى الأعصر الأخيرة . أما الان فهذا النوع موجود بقلة فى مصر وقدّر حجم ليمون البلسم بالابهام وهو نوع من الليمون أشجاره نادرة جدا بمصر، ولم يخل بذكر الكثير من أنواع البطيخ والقثاء وغيرها، ولقد خص بالذكر عبد اللّاوى وقرع الضروف، والملاحظ أن الكثيرين من كتاب الأجانب الذين كتبوا عن مصر ذكروا عبد اللّاوى وخصّوه بالوصف ويظهر أنهم لم يأكلوه . وأما القرع فكان فى المرتبة الثانية من عبد اللّاوى ، ولقد أسهب عبد اللطيف فى وصف حديقة الباسان بعين شمس واسمه اللاتينى (Commi-phora Opobalsmum) وكانت مساحة هذه الحديقة سبعة أفدنة ، وموطن هذا النبات بلاد الأحباش وبلاد العرب والسواحل النوبية وشجيرته صغيرة متفرّعة ، ومن وصف عبد اللطيف

يستنتج أنها اذا زرعت تكون قصيرة ، فقد ذكر أن طولها يبلغ ذراعا أو أكثر، ويجتنى دهن البلسان بأن تشدخ السوق بحجر محدّد بحيث يقطع القشر الأعلى، ويشق الأسفل شقا لا ينفذ الى الخشب، والبلسان لا يثمر فى مصر . وذكر عن السفرجل أنه ردىء جدّا وصغير . وذكر عن الياسمين أن منه الأبيض والأصفر . وذكر أيضا البنفسج وقال إن الأهالى لا يحسنون استخراج الروائح العطرية .

ووفد على مصر أيام هذه الدولة ابن البيطار النباتى والعشاب الطائر الصيت والذى رحل من بلاده (الأندلس) الى مراكش فالجزائر فتونس لدرس النباتات ، وكان الحاكم على الديار المصرية حين وصوله اليها الملك الكامل الأيوبى ، واتصل بخدمته وعين رئيسا على سائر العشابين ، واستمر فى خدمة ابنه الملك الصالح نجم الدين، ثم ذهب الى دمشق ومن ثم سنحت له الفرصة فى درس النباتات . ومن مؤلفاته "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" ذكر فيه نباتات كثيرة ، وقال عن الأترج إنه يزرع كثيرا ببلاد العرب وتستمر شجرته فى الأثمار مدّة عشرين سنة ، وذكر عن الزنزلخت (Melia Azedarach) أنه يعرف بالليلاق الفارسى وأشار الى فعل الثمرة السام ، ثم ذكر أن نبات الاثل تخرج على فروعه عقد تشبه

الحمص، وكانت تعرف فى عهده بحب الاثل، وتعرف الآن بالبجم .
وأما من جهة المنافع الطبية لهذا الحب واستعماله فى الدباغة كما ذكرهما ابن البيطار فهذا شيء لم يتغير من عهده للآن ، وذكر أن نبات الحنظل ينمو فى المناطق الصحراوية والأودية، وذكر النجيل تحت اسم ثيل ونجير ونجم ولا شك أن النبات سمى بالاسم الأخير لتشابه أزهاره بشكل النجم ولم يترك المترجم ما لهذا النبات من الفائدة فى غذاء الماشية ، وذكر نبات البنج وهذا النبات يعرف بالسكران (Hyoscyamus muticus) . وقد كان العطارون لعهد غير بعيد يستوردون خفية من بلاد الهند بزور (Hyoscyamus niger) باسم البنج ، ووصف ابن البيطار أن البزور رفيعة تشبه بزور الخشخاش ، وذكر أنه يكثر بأسيوط ، وقال عن الأفيون أنه يغش بعصارة ورق الخس، وأجاد فى وصف نبات البابونج وأسهب فى وصف اللوتس الأحمر، ومن رأى النباتيين وعلماء الآثار أن هذا النبات لم يكن معروفا بمصر قبل مجيء الفرس، ولقد ذكر العالم النباتى مشلر (Muschler) أن هذا النبات لم يكن يستعمل فى النقوشات قبل عصر الرومان، والظاهر أنه انعدم من الديار المصرية بعد زمن ابن البيطار ، ولكنه استورد من عهد ليس ببعيد . أما النوع الأبيض فقد وفاه حقه وكان يعرف أيام ابن

البيطار باسم جامسه أو باقله قبطى ، ولم يذكر النوع الأزرق ، وذكر نبات البردى وكيفية عمل الورق من سوقه، وذكر أن السمار كان يعرف فى وقته باسم الأسل، وكان يعمل منه الحصر كما هو الحال الآن ، ثم ذكر النباتات الشهيرة الآتية الاسفاناخ والآس والجرجير والبامية والجميز وجوز ماثل (Datura Metel) ، وذكر أن ثمار الجميز كانت تختن كما هو جار الآن .

وفى أيام الملك العادل أنشأ الشريف فخر الدين اسماعيل ابن ثعلب أحد أمراء مصر بستانا عظيم القدر مساحته خمسة وسبعون فدانا فيه سائر الفواكه والأشجار والكروم والنرجس والهليون والورد والنسرين[1] والياسمين والخوخ والكمثرى والنارنج والليمون التفاحى والليمون المركب والمختن والجميز والقراصيا والرمان والزيتون والتوت الشامى والمصرى والمرسين والتمرحنا والبان الخ ، وبه الآبار المعينة وله الهماليات (السواقى) وفيه منظرة عظيمة ، وكان عليه سور مبنى وله باب جليل وبابه فى الموضع الذى يقال له "اللوق" فى عصرنا الآن .

العصـــر المملوكى :

ثم آل ملك مصر الى المماليك (١٢٥٠ ميلادية) وهم رقيق ممن كانوا يباعون بأسواق الجركس والترك وغيرها ، وقد اشتهر

(١) ورد أبيض عطارى قوى الرائحة — تذكرة داود .

بعض هؤلاء السلاطين بقوة الفكر والهمة مثل الناصر محمد، ففى أيامه حفر الخليج الناصرى وأجرى فيه الماء، فأنشأ الناس عليه عدّة سواق واشتروا الأراضى من بيت المال وغرسوا فيها الأشجار وصارت بساتين جميلة .

وأنشأ الناصر بالقلعة بستانا عظيما وأجرى اليه الماء من النيل بواسطة مجارٍ خاصة (السبع سقايات) وجلب اليه الأشجار من سائر الأنحاء وطلع فيه الكادى (Pandanus odoratissimus) وجوز الهند وغير ذلك . وأنشأ بستانا آخر مشرفا على النيل مكان الميدان الظاهرى بطرف أراضى اللوق وأرسل الى دمشق فحمل اليه منها سائر الأصناف من الشجر وأحضر معها خولة ومطعمين من الشام فغرسوا الأشجار فيه وطعموها ، ومنه تعلم الناس بمصر تطعيم الأشجار ، وجعل السلطان فواكه هذا البستان مع فواكه البستان الذى أنشأه بسرياقوس تحمل بأسرها الى الشراب خاناه السلطانية بقلعة الجبل ولا يباع منها شىء البتة فجادت فواكه هذين البستانين وكثرت حتى حاكت بحسنها فواكه الشام لشدّة العناية والخدمة .

وقد ظهر نجم المقريزى المؤرّخ خلال حكم المماليك ، وشرح لنا فى خططه مراتب الأراضى المصرية شرحا بديعا يدل على المعرفة ، فذكر أن أعلاها قيمة وأوفاها سعرا الباق ، ثم البرابيب ،

ثم السقماهية، فالشتونية، فالسلايح، ثم أخذ يعدّد مراتبها حتى أتى على أقلها مرتبة وهى السباخ وقال عنها انها كل أرض غلب عليها الملح ولم ينتفع بها، ثم ذكر المحاصيل المصرية ومواعيد زراعتها وإدراكها، ثم أشار الى زراعة القلقاس مع القصب ثم ذكر الباذنجان والفجل واللفت والخس والكرنب .

أما عن الفواكه فقد ذكر أن الكرم يغرس فى أمشير وأن التين والتفاح يغرسان فى أمشير، وأن التوت يقلم فى برمهات، وأن اللوز والخوخ والمشمش تبل فى ماء طوبة ثلاثة أيام ثم تغرس، وأن بصل النرجس يدفن فى مسرى، ويزرع الياسمين فى أيام النسىء وفى أمشير، والمرسين فى طوبة وأمشير، والريحان فى برموده، والموز الشتوى فى طوبة والصيفى فى أمشير، وتقلم الكروم من برمهات حتى تخرج العين منها، والأشجار فى طوبة وأمشير إلا السدر (النبق) فانه يقلم فى برموده، وتسقى الأشجار فى طوبة ماء واحدا ويسمى ماء الحياة، ثم فى أمشير ثانيا عند خروج الزهر، ثم فى برمهات ماءين آخرين الى أن ينعقد الثمر، ثم فى بشنس ثلاث مرات، ثم فى بؤنة ومسرى ماء كل سبعة أيام، ثم فى توت وبابه مرة واحدة تغريقا من ماء النيل ،

ثم فى هاتور من ماء النيل بتغريق المساطب ، ويسقى البعل من الكروم فى هاتور من ماء النيل مرة واحدة تغريقا .

وذكر أبو العباس القلقشندى فى كتابه "صبح الأعشى" أن من مزروعات مصر البسلة والخشخاش والخروع والسلجم والبطيخ والقثاء على اختلاف أنواعها والملوخيا والقلقاس واللفت والباذنجان والدباء(١) والهليون والقنبيط ، وأنواع البقول المختلفة كالثوم والبصل والكراث والفجل وغيرها ، ثم ذكر أن رياحينها هى الآس والورد والبنفسج والنرجس والياسمين والنسرين والبان (يطلق البان على الفتنة ببلاد العرب) واللينوفر وأزهار المحمضات والريحان الفارسى على اختلاف أنواعه .

ثم ذكر أن فواكهها هى الرطب والعنب والتين والرمان والخوخ والمشمش والقراصيا والبرقوق والتفاح والكمثرى والسفرجل واللوز الأخضر والتوت والفرصاد(٢) والموز ، ولا يوجد فيها الجوز والفستق والبندق إلا مجلوبا بعد جفافه ، والزيتون فيها بقلة ولا يستخرج منه زيت البتة، وانما يؤكل مملحا، وفيها من المحمضات الأترج والحماض والكباد ، والنارنج والليمون على اختلاف أنواعه .

---

(١) القرع — ابن البيطار .

(٢) الفرصد ، والفرصد . والفرصاد : التوت . وقيل حمله وهو الأحمر منه — لسان العرب لابن منظور المصرى .

وذكر ابن إياس وهو من المؤرّخين الذين مرّ عليهم اضمحلال دولة المماليك فى كتابه : "بدائع الزهور" أنه يوجد فى مصر الأبنوس الأسود والأفيون ودهن البلسان ، وذكر أن الأخير لا يوجد إلا بحدائق المطرية ، وعند إدراكه يأتى شخص من قبل السلطان يتولى اعتصاره ويحمل الى خزائن السلطان ويضاف شىء منه الى البيمارستان لمعالجة الأمراض ولا يؤخذ منه شىء إلا بمرسوم سلطانى ، وله عند ملوك الحبشة والفرنج مقام عظيم .

وذكر أن بمصر السنط ، وأن من الصناعات البلدية الشهيرة استخراج زيت السلجم ، وأنه يوجد بها النارنج والأترج المدوّر . وقيل إنه حمل من أرض الهند وزرع بمصر سنة ثلثمائة من الهجرة ، وقد ذكر الخوخ الزهرى الأحمر ، والخيار شمبر والعوسج ، وذكر أن الأخيرين من النباتات الطبية .

وقال إن من محاسن مصر السبع الزهرات التى تجتمع فى وقت واحد وهى النرجس والبنفسج والبان والورد النصيبى والنارنج والياسمين والورد الجورى .

العصر العثمانى :

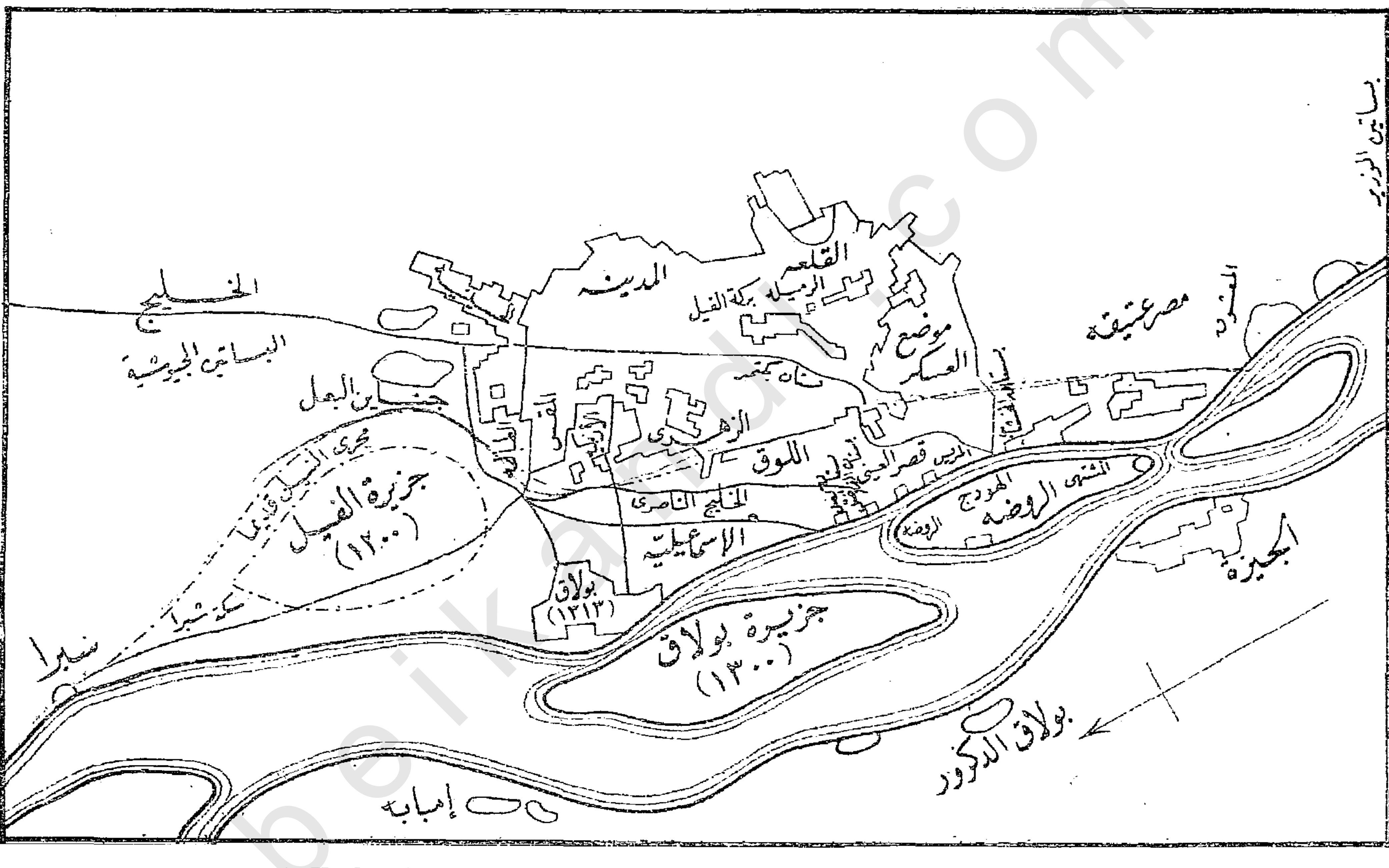
وفى سنة ١٥١٧ م صارت مصر ولاية عثمانية وكانت السياسة المتبعة إذ ذاك هى توزيع الأمر بين بيكوات المماليك والولاة

الأتراك ولم يتمكن أحد منهم من عمل شيء نافع واستمرت المنافسات والمنازعات الداخلية زمنا طويلا، وكان لهذه الحالة تأثير عظيم على مدنية البلاد، وصار كاهل الفلاح مثقلا بالضرائب وأعمال السخرة وليت مصابه وقف عند هذا الحدّ، فان ما كان يبتزّه منه بيكوات المماليك كان أدهى وأمرّ، فتركت أغلب الأراضى بورا وبهذه الضرائب المضاعفة التى لم يكن لها حدّ معلوم خيم الفقر على أهل البلاد حتى وصلوا فى آخر القرن الثانى عشر الهجرى الى درجة من الفاقة لم يسبق لها مثيل . هذا ولا يفوتنا أن نذكر أن بعض النباتات الأمريكية أدخلت الى مصر فى هذه الفترة منها الدخان والطماطم والبطاطا .

وقد زار مصر خلال مدّة المماليك كثير من الروّاد ووصفوا نباتاتها منهم بروسبر ألبينس (Prosper Alpinus) الذى زارها فى سنة ١٥٨٠—١٥٨٣ م، وبترس فورسكال (Petrus Forskal) الذى زارها فى سنة ١٧٦١ — ١٧٦٧ م .

عصر الحملة الفرنسية :

ثم احتل الفرنسيون البلاد سنة ١٧٩٨ م وعلى رأسهم نابليون بونابرت وكان الغرض الأوّل من حملة الفرنسيين على مصر هو رضح شوكة الانجليز فى الشرق، ثم احتلتها تركيا ثانيا سنة ١٨٠١،



رسم تخطيطي يبين شكل القاهرة بين سنة ١٢٠٠ م وسنة ١٨٣٥ م عن ا . و . لين (E. W. Lane) بتصرف

وقد قام النباتى الشهير دليل (Delile) الذى كان مرافقا للحملة الفرنسية بحصر نباتات مصر وضبطها، ولم يكن عمله الخطير جامعا لشتات النباتات المصرية ولا مستقصيا وصفها، لأنه لم يستطع أن يجوس خلال الديار خوفا على حياته .

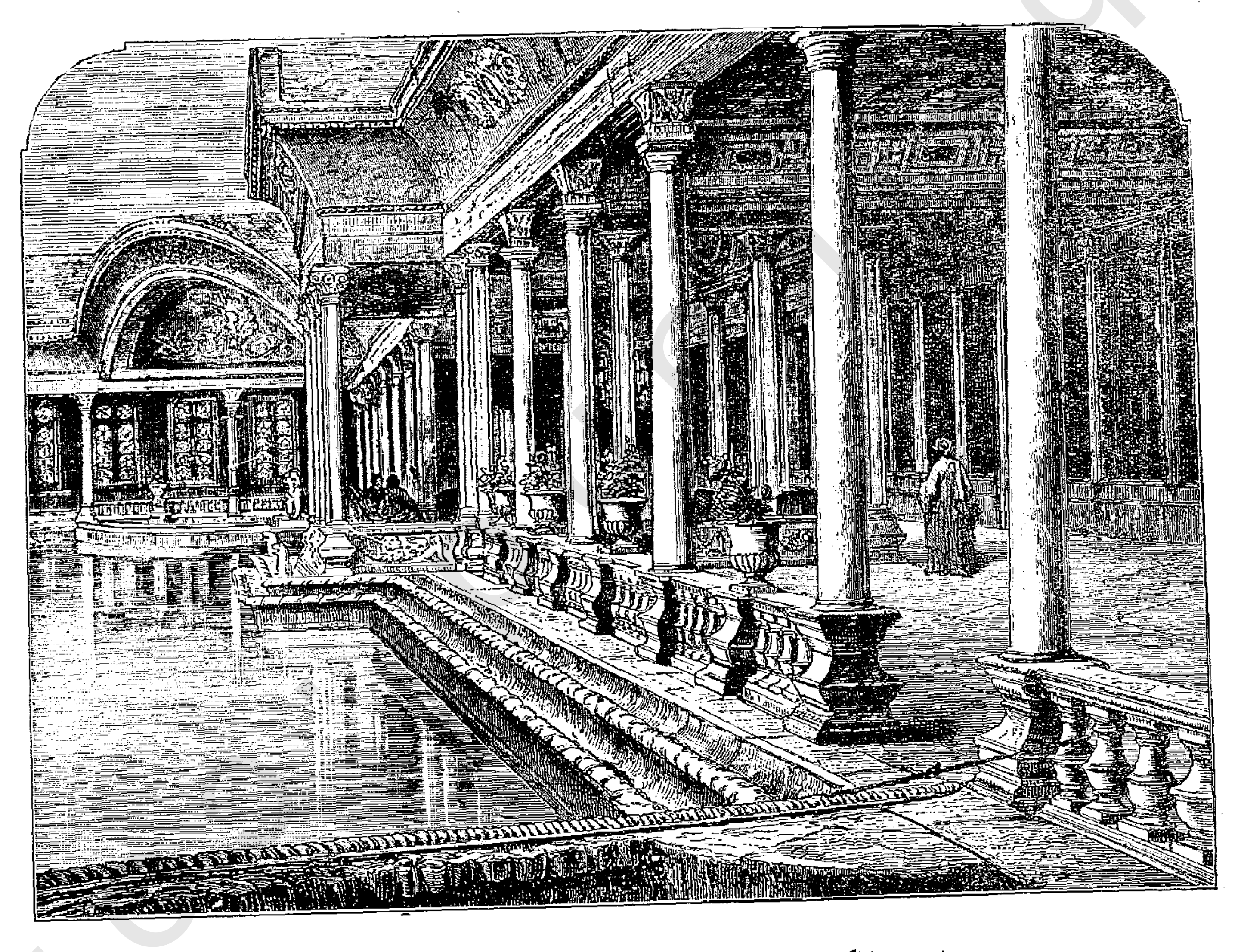
العصر الحديث :

ولما استولى محمد على باشا على حكم مصر وقرر قواعد الأمن والنظام . كانت الزراعة أول عمل وجه اليه عنايته الخاصة إذ رأى أنها ينبوع ثروة البلاد، فجعل زراعة جميع الأراضى تحت إشرافه، واعتنى بتحسين زراعة الحدائق ، فأنشأ بجوار قصره بشبرا حديقة غناء اتخذها وقصره مصيفا له ، وكفاها وصفا ما قاله (سيبيون مادين) فى كتابة عن مصر المطبوع سنة ١٨٣٩ : " إن شبرا ولا ريب هى المثل الأعلى لما وصلت اليه فلاحة البساتين التركية، هى جنة عدن الفسيحة الفيحاء ذات العدد العديد من باقات الياسمين والفتنة وكل ما عرف من الزهور، طرقاتها مزدانة الجوانب بالزعتر والحصى لبان المقصوص المنسق ، وقد بعثرت فى أرجائها جواسق شتى الأحجام والأشكال ومظلات من أشجار وشيجة وخمائل اكتست بمتسلق النبات ونافورات ومنحدرات ماء متألقة بالأضواء أقيمت كلها تحت ظلال أشجار الجميز الباسقة الكثيفة ،

وفى وسط الحديقة بهو كبير للاستراحة فى وسطه نافورات ماء ودهاليز وأفاريز وشرفات مزينة بأسود من البرنز وأبواب منقوشة الذرى" .

وأنشأ لهذه الحديقة طريقا من القاهرة على جانبيه أشجار متبادلة من الجميز واللبخ (Albizzia Lebbek) فكان منها عقد أخضر، وليس أعجب من منظر أشجار الجميز العظيمة الحجم المزروعة بهذا الشارع برؤوسها الضخمة الخضراء وفروعها الكبيرة الكثيرة التشعب الحاملة لأفنان حافلة بالثمار . وذكر داشفاليرى فى كتابة حدائق القاهرة ومتنزهاتها "ولا يوجد فى أوروبا بلد به متنزه جميل بديع المنظر ساحره كشارع شبرا الذى تخطف فيه المركبات العديدة بمترفى العاصمة ، وترى الى يمين الشارع الحقول الخضراء الممتدة، وقد بعثرت فى أرجائها المقاصير (الفيلات) الى آخر مدى البصر شرقا، وترى الى اليسار المنظر عينه والنيل معترضا الأفق على مسافة قريبة" .

وأهم أشجار الفاكهة بهذه الحديقة : البرتقال، الترنج، الليمون بجميع أصنافه المعروفة ، والمشمش ، والخوخ ، والتين ، والقشطة، والبشملة ، والجوافة ، والمانجو ، واللوز ، والباباظ ، والجميزة ، والتمر هندى .



الجوسق (الكشك) بحديقة شبرا بريشة ب · ستراسبرجر (B. Strassberger)

وكان الانسجام متوافرا بين جمال الحديقة وجلال المبانى التى تحتويها، وقد استجلب لها محمد على نباتات من الخارج ثمينة القيمة بندرتها وعدم وجود ما يضارعها .

ولقد أصاب هـذه الحديقة من العطب ما أصاب غيرها من آثار ذلك الرجل العظيم ، ومن الأسف أن عددا كبيرا من هذه الأشجار ذهب ضحية الوقود إبان الحرب العالمية، وقد اندثر القصر كذلك وذهبت معالمه، وليس ثم بقيـة من كل هذا ممـا يلفت الأنظار خلا الغدران والبرك التى بذل فى عملهـا الجهد الكثير والمـال الوفير ، ولقد كان واجبا على مصر أن تضن بهذه الجنة الفيحاء وتحتفظ بها أثرا موروثا وحسبك أن أوّل شجرة ما نجو نمت بهذه الحديقة . ولمـا وفد ترايل (Traill)، ومكولش (Mc Culloch) الى مصر مع بوڤيه (Bové) لم يجدوا بالقطر المصرى حديقة جديرة بالذكر خلا هذه الحديقة وقد نيط ببوڤيه تعهد حدائق محمد على مدّة أربعة أعوام زار فى خلالها بلاد العرب دفعتين وأفلح فى جلب نبات القات (Catha edulis) والبن وغير ذلك .

ثم خلف محمد على ابنه ابراهيم باشا ولم يطل عهده ولو طال لجاء بخير كثير فقد كان لا يقل عن والده عناية بفلاحة البساتين ، ولقد أنشأ بوڤيه واثنـان انجليزيان من رصـفائه الحديقة الشهيرة

باسم البستان الكبير بجزيرة الروضة، وقد جعلت قسمين كل قسم منهما حديقة قائمة بذاتها . فالحديقة الأولى نسقت بحسب الأسلوب الانجليزى، والأخرى بمقتضى الطريقة الفرنسية، وقد جمعت هذه الحديقة أغلب النباتات الأوروبية والأمريكية والهندية، وكان بها مغارة مصنوعة من الودع وجبلاية مغروسة بالأشجار والأزهار .

ولقد بذل محمد على وابنه ابراهيم جهدا كبيرا فى إدخال النباتات الأجنبية الى مصر وأقلمتها وصرفا فى ذلك بدر المال، ولم يكن ذلك طلبا للزينة ونشدان الرواء بل كان لانماء ثروة البلاد النباتية . ومن الأسف أن قد فنى جانب عظيم من هذه النباتات الأجنبية من جرّاء الاهمال والتقصير والعبث .

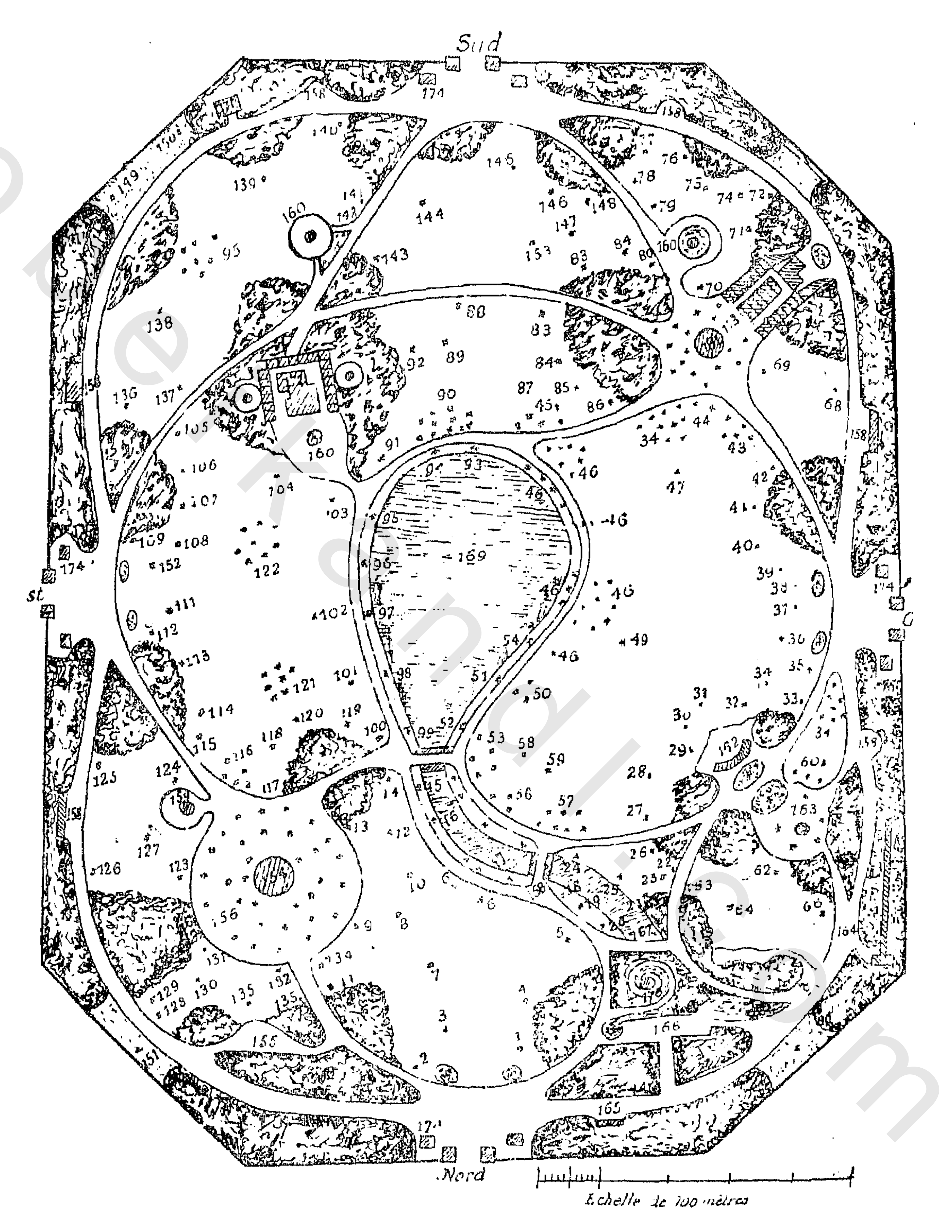
ولم تقتصر همة محمد على وابنه ابراهيم على إنشاء بساتين لأنفسهم، بل عمموا ذلك فى طول البلاد ، فقد وجه محمد على نظره الى العاصمة وأمر بازالة التلال المحيطة بها، وإنشاء الميادين والحدائق، ولقد تعب فى ذلك تعبا شديدا، فأزال المسيو بونفور مهندس ابراهيم الأكوام الواقعة ما بين النيل وبولاق والقاهرة ، ثم أنشئت متنزهات مكانها تمتد مدى البصر ووضع الأمير تحت تصرفه ماشاء من الأموال والرجال، فأقدم المهندس المذكور بهمة على تنفيذ ما أمر به، ولم تمض ثمان سنوات حتى تم ثلثا المهمة،

وكلف محمد على المهندس برهان بك رئيس إدارة الأشغال العمومية وأحد تلاميذ البعثة المصرية الأولى الى باريس بوضع مشروع لتحويل الأزبكية ببركتها الى بستان عام، فصدع بالأمر وردمت ردما أوليا وزرعت بأنواع من الفيكس (Ficus)، والأثل والخيارشمبر والسنط، والنخل، وما مضى إلا زمن يسير حتى تحوّلت الأزبكية الى دمنة وصارت ترتكب فيها أعمال مغايرة للآداب حملت أقدام الكرام على هجرها والابتعاد عنها .

وبعد موت ابراهيم جاءت فترة سكون على مصر ، ولقد أحسن سعيد باشا باصداره قانون الأراضى الشهير عام ١٨٥٨ م الذى أصبح به الفلاح لأوّل مرة المالك الحقيقى لما يفلحه من الأرض .

ولما اعتلى إسماعيل باشا منصة الحكم تمم أعمال جدّه محمد على وسار باصلاحاته شوطا بعيدا ، وكانت عنايته بانشاء الحدائق على اختلاف أنواعها مما يستوقف نظر المؤرخ ، وليس من المبالغة القول بأنه لم يعن حاكم من حكام العالم بتشجيع فن الحدائق عناية اسماعيل باشا به فى مصر، فقد أدخل اليها إبان حكمه كثيرا من الأشجار المختلفة الأنواع ، والحقيقة أن وجود تلك الأشجار والنباتات الأخرى هو السبب فيما لحدائق القاهرة والجيزة

والجـزيرة وغيرها من الرونق وجزيل المنفعة ، وقد كان يستجلب البزور والنباتات من أبعد أصقاع العـالم وأشدّها تباينا ليزرعهـا فى حدائقه . ولذا نرى الآن النباتات المتباعدة الموطن تعيش جنبا الى جنب ، واستقدم الأخصائيين الأجانب فى هذا الفن وبذل فى ذلك عناية خاصة ، حتى انه فى مدة وجيزة قام بانشاء جملة حدائق غاية فى الأهمية حول قصوره بالجيزة والجـزيرة ، وكانت حدائق الجيزة ثلاثة أقسام : الأوّل حديقة للفاكهة (وهى حديقة الأرمان الآن)، وبها شتى الأنواع من أشجار الفاكهة وخصوصا البرتقال . والقسم الثانى حديقة الحرم (الجزء الغربى من حديقة الحيوانات الآن) ، وبها طرقات ومماشى مرصوفة بمختلف الألوان والأشكال من الحصى (الزلط) المجلوب من جزيرة رودس . والقسم الثالث حديقـة السلاملك (الجزء الشرقى من حديقة الحيوانات الآن) ، وقد حوكيت فيها المناظر الطبيعية من انخفاض وارتفاع واستواء ، وقد وضع تصميمها المسيو باريليه المهندس الأخصائى فى المناظر الطبيعية الريفية ، وتزين هذه الحديقة أكمة شيدها المسيو كومباز ، وكان أمر القيام بتلك الأعمـال موكولا الى المسيو دلشيفاليرى يعاونه فى ذلك ابراهيم حموده كبير البستانيين الوطنيين وآخرين من جنسيات مختلفة .



رسم تخطيطي لحديقة الأزبكية (سنة ١٨٧٢ ميلادية)

وقد يكون من المفيد الاشارة الى حديقة قصر السلطان حسين بالجيزة فقد أنشئت فى عهد اسماعيل باشا واشتهرت بجمالها حتى خارج القطر، وكان فى صوباتها مجموعات نفيسة من النباتات السرخسية والسحلبية (Orchids) ، ولكن من الأسف أن كثيرا من تلك النباتات اندثر بعد آن غادر القصر المرحوم السلطان حسين ، ولو أن النظام نفسه لم يطرأ عليه أى تغيير ، ففى هذه الحديقة تجد شجرة قائمة من شجر الأبنوس الحقيقى . وهناك كان معهد كثير من كل مستظرف حديث على فن فلاحة البساتين ، إذ من بين نباتات الورد الكثيرة التى أخرجها هذا المعهد الى الحدائق الأخرى فى القطر النوع المسمى بالورد الحسينى ، وكذلك نبات الجهنمية التى بلون الآجر والأراوله .

ولقد أحسن اسماعيل باشا الى سكان القاهرة بانشائه حديقة الأزبكية حيث كان موضعها الميدان الذى أنشأه جدّه ، وكانت أرضه منخفضة عن مستوى مياه النيل أثناء الفيضان فكان بذلك عرضة لرشح المياه ، بجعل الحديقة فى عشرين فدانا منها وأضاف اليها شتى أنواع الملاهى ، وكان بها أجمل مجموعة للنباتات التى أتى بها من الخارج وألفت طقس مصر .

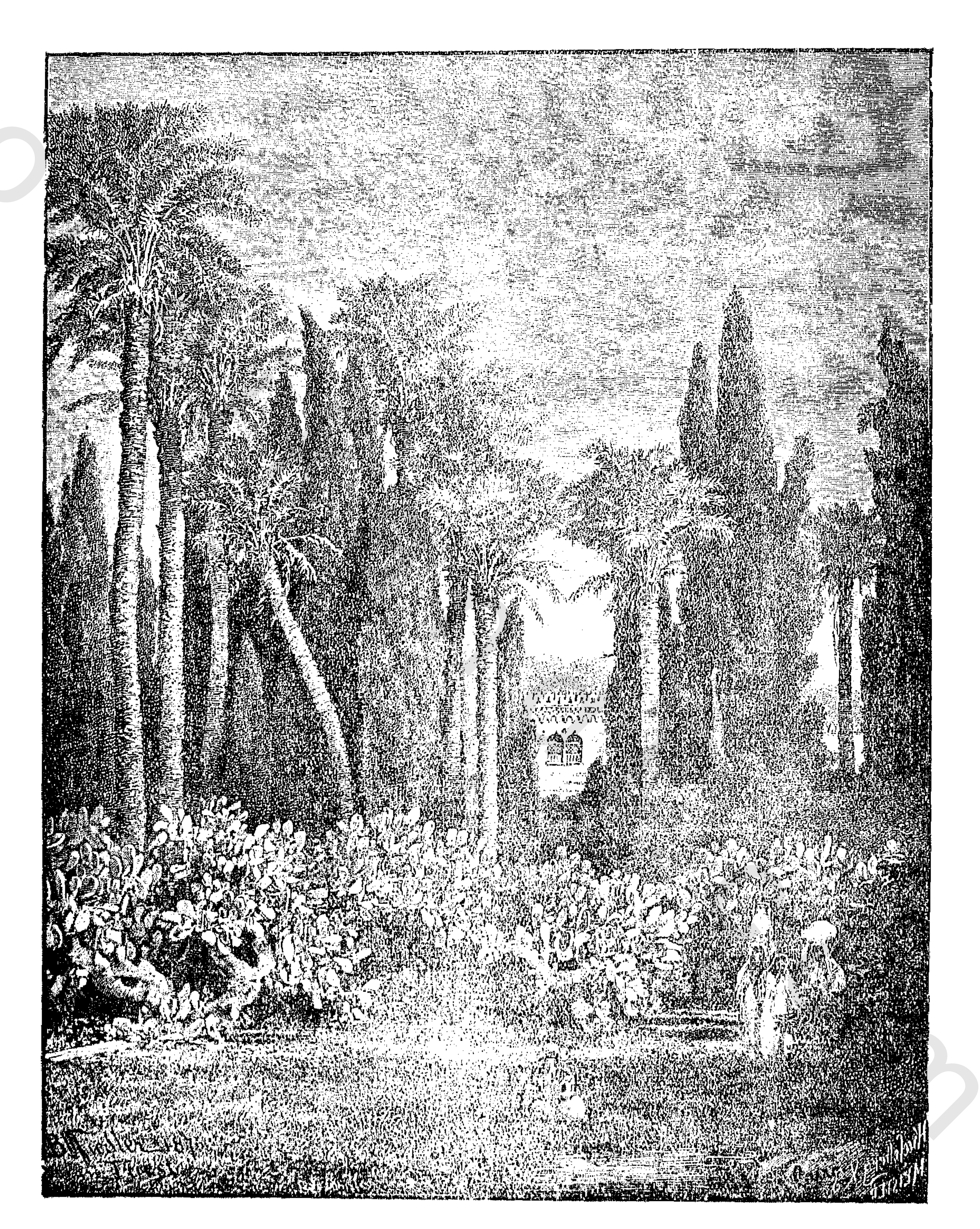
وكان بالجزيرة حديقة الأسماك (الجبلاية الآن) استقدم لها

أخصائيين بعمل الكهوف الصناعية وغرس فوقها الأشجار الجبلية ، وبها مجموعة نفيسة من النخيل .

وكان بالجزيرة أيضا حديقة لتمصير (أقلمة) النباتات ، وقد ذكر دلشيفاليرى أنه صار بها عام ١٨٧٦ م ما يربو على المليون من النباتات الأجنبية بعضها للزينة والبعض الآخر ذو منافع ، وغرس ثلاثة أمثال هذا العدد فى الميادين العامة بالقاهرة وغيرها وفى المتنزهات والحدائق الخديوية والخصوصية ، وكان بهذه الحديقة صوبات احتوت على النادر من النباتات سيما الزخرفية التى ادخرت لزين الحفلات والأعياد .

ومما يؤسف له أن الأعمال السابقة أهملت بعد نزوله عن الأريكة ، فاذا كان الماضى قد وسعه أن يضطلع بكل ذلك ، ولو قصر وقعد به العجز لكان له العذر ، فما ظنك بما يدخل فى مقدور العصر الذى انتشر فيه التعليم واتسع نطاق المدارك ، لقد كان بطوقه أن يكون أعظم وبأثره أن يكون أبلغ .

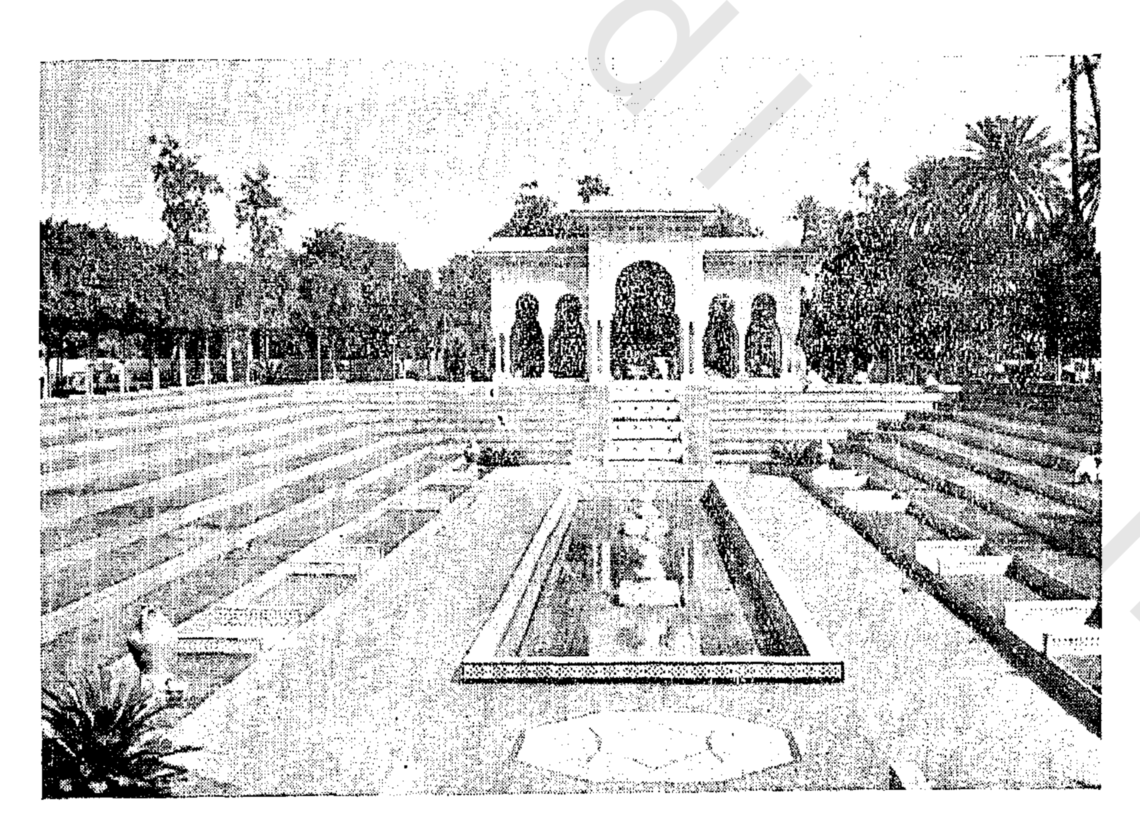
ومذ تولى العرش جلالة "الملك فؤاد" وجه عنايته السامية لفلاحة البساتين ، واستعاد واستتم أعمال التجديد التى تولاها سلفاه العظيمان محمد على واسماعيل ، وأثبت بشتى البينات ما يجيش فى صدره من روح التقدم بتوجيه بلاده وجهة العلم .



حديقة لأحد الأمراء (سنة ١٨٧٦ ميلادية) بريشة برنارد فيدلر (Bernhard Fiedler)



نافورة السباع بحديقة الفردوس (الجزيرة — القاهرة) سنة ١٩٣٥



الجوسق (الكشك) الملكى والنافورة بحديقة الفردوس (الجزيرة — القاهرة) سنة ١٩٣٥

ومن مآثره الشخصية ما تجمل به مزارعه الخاصة من النواحى الفنية التى زوّدها بهـا ، وتحويله الصحراء فى أحد هذه المزارع (انشاص) الى بستان نضر أصبح اليوم من أبدع بساتين العالم .

وفى عصره اتسع نطاق قسم البساتين وازداد نشاطه فاستورد أصنافا كثيرة من الفاكهة والخضر وغيرها من النباتات الاقتصادية وعمل على أقلمتهـا وتوزيعهـا ، وحضّ على التوسع فى زراعة البساتين حتى ازدادت مساحتها زيادة عظيمة .

وفى أيامه الزاهرة أنشئت متنزهات عديدة : منهـا الحديقة الفرعونية ، والأندلسية بالقاهرة ، واليابانية بحلوان ، وحديقة الورد بالاسكندرية .

وفى عهـده المبارك أرسلت بعثات عديدة الى الممالك المختلفة لدراسة فلاحة البساتين علميا وعمليا ولاستحضار النباتات المختلفة التى نرجو أن تزيد فى ثروة البلاد الاقتصادية .


obeikandl.com

المــــراجــع

(١) الافادة والاعتبار ، لعبد اللطيف البغدادى .

(٢) الجامع لمفردات الأغذية والأدوية ، لابن البيطار .

(٣) قوانين الدواوين ، لابن ممّاتى .

(٤) صبح الأعشى ، للقلقشندى .

(٥) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، لابن إياس .

(٦) لمحة عامة الى مصر ، لكلوت بك (ترجمة محمد بك مسعود) .

(٧) حدائق ومتنزهات القاهرة ، لدلشيفا ليرى (ترجمة الأستاذ يوسف شبتاى) .

(٨) الخطط التوفيقية ، لعلى باشا مبارك .

(٩) الحضارة القديمة ، لأحمد باشا كمال .

(١٠) الأثر الجليل ، لأحمد بك نجيب .

(١١) حقائق الأخبار فى دول البحار ، لاسماعيل باشا سرهنك .

(١٢) دليل دار الآثار العربية القديم .

(١٣) كتاب تاريخ مصر من الفتح العثمانى ، لعمر الاسكندرى ، وسليم حسن .

(١٤) تاريخ اسماعيل ، لالياس الأيوبى .

(١٥) المجلة الزراعية المصرية .

(١٦) مجلة فلاحة البساتين المصرية .

(١٧) مجـــلة الفــــلاحة .

(١٨) معجم أسماء النبات ، للدكتور أحمد بك عيسى .

References

(1) Struggles of Nations, by Gaston Maspero.

(2) Dawn of Civilisation, by " "

(3) Fayoum Province (Topography and Geology), by H. G. L. Beadnell.

(4) The Topography and Geology of the District between Cairo and Suez, by T. Barren.

(5) Life in Ancient Egypt, by Erman.

(6) Ancient Egyptians, by Wilkinson.

(7) A History of Egypt, by Breasted.

(8) Journal of the Royal Horticultural Society.

(9) Picturesque Egypt, by G. Ebers.

(10). A Story of Cairo, by Stanley Lane-Poole.

(11) Indian Trees, by Brandis.

(12) Manual of Gardening for India, by Cameron.

(13) Index Kewensis.

✣
✣ ✣

كمل طبع " تاريخ فلاحة البساتين بمصر "
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الثلاثاء
٢٤ ديسمبر سنة ١٩٣٥ م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية